

تاريخ النضال

بين العلم والدين

مراجعة وتلخيص عن الاستاذ دراير Draper

(٢)

أسهب المؤلف في الفصل الثالث من الكتاب في بسط النزاع الذي قام بين مدرستي الاسكندرية وروما فقال ان كلاهما كانت تبذل الجهد لتعطي المسيحية اللون المؤلف لديها وكان مجال البطولة الحربية قد ضاق عن أن يسع كل ذوى المطامع ففتحت لهم أبواب البطولة الدينية على مصراعيها خصوصاً وان الامبراطورية الرومانية كانت قد أصبحت مرسجاً يتنازعه ثلاثة من البطارقة أحدهم في روما يناضل عن الحق المكتسب والثاني في الاسكندرية يدافع عن مركز الثقافة والثالث في القسطنطينية يحاول احياء المجد الغابر

وأخذت المناقشات تدور في الشرق حول نظرية التثليث لأن الاغريق كانوا تأميل الى الشرك في حين كان الساميون أميل الى التوحيد. وشتان ما بين العقليتين. واحدة تتخيل العذراء في أبهى حلة نسائية يحيط بها الملائكة المجنحون وترفرف حول رأسها المنير أرواح الشهداء وهي حاملة بين ذراعيها الابن الاله والبشر يطفح من وجهها ، وعقلية أخرى لا تتصور الله الا جباراً قادراً مدبراً يغار من الشرك ومن التشبيه . فكان أصعب الآلهة ايزيس يلعب في هذه الثورة دوراً مهماً تحت اسم العذراء ، بزعامه سيريل Cyril . في حين كانت يقود المعارضة « نسطور » الذي كان يصرح بأن العذراء لم تكن أما الا لما هو انساني فقط من ابن الله ، وهكذا اتسع الخرق عند ما أنكر النساطرة « العذرية » للأمم كنتيجة لازمة للوضع. فنتج عن هذه «الهرطقة » نفي نسطور فئات وتشتت أتباعه ومعظمهم قصد وادي الفرات حيث غاصوا لا ذانهم في كتابات أرسطو. وهكذا انتصرت اليونانية على السامية في هذه الموقعة وأصبح للقسطنطينية اليد العليا. وأما روما فلم يحن الكلام عنها بعد

(٣ - ٢ ع)

وتبع المؤلف النساطرة الى أرض الكلدان حيث أنشأوا لأنفسهم كنيسة مستقلة نبغ فيها علماء وفلاسفة نقلوا الى السريانية والفارسية شيئاً كثيراً عن اليونانية حيث كان قد تقدم الطب في حمى اليهود فسار القومان جنباً الى جنب وتغلغلا بأفكارها الى قلب البلاد العربية حيث أصبح للأولين فيها بطريقاً وعقب حدوث الجزر والمد بين دولتي الفرس والرومان أن اكتسح الاول الارض المطهرة فعمبنوا بقبر المسيح وغيره من البقع المقدسة. ومع كل هذا لم يتغير سير الشمس ولم تهتز الكائنات غضباً. وفي وسط هذه الارتباكات سطعت شعلة من بلاد العرب لم تلبث أن اكتسحت تسعة أعشار الامبراطورية الرومانية. وهنا أخذ المؤلف يقارن بين نشأة الاسلام ونشأة المسيحية ثم قال ان الثانية قد عجزت عن التغلب على الوثنية فامتزجت بها في حين ان الاسلام أشهر عليها حرباً ناجحة، وحاول المؤلف أن يثبت أن تعاليم النساطرة واليهود كانت فعالة في النهضة العربية وأثرت تأثيراً جوهرياً فيها مما لا مجال لسرده هنا إذ أن عقولنا لسوء الحظ لم تعتمد هضم النقد العالي

وسقطت الاسكندرية وقرطبة والقدس، وهي معاقل ثلاثة من معاقل المسيحية الخمسة ولم يكن سقوط القسطنطينية الا مسألة متروكة للوهم في حين كانت روما أعز من جبهة الأسد

وكان استعداد العرب لقبول الافكار النسطورية — اليهودية غريباً. لأنه بالرغم عن احراق عمر لمكتبة الاسكندرية — وكان هذا أمراً مألوفاً في ذلك الوقت ويمده فقد أحرق الاسبان ما عثروا عليه في المكسيك وفي غرناطة من نتاج العقول في وقت أكثر تأخراً — نقل المسلمون في أقل من قرن بعد وفاة محمد خير ما جادت قرائح الرومان واليونان الى العربية وقت أن كانت المسيحية تتخبط في ظلام التعصب والجهل. وقد نشط اليهود والنساطرة الى النقل للسريانية ثم الى العربية، أو الى الأخيرة مباشرة

وأثرت التعاليم الجديدة في فهم العرب لمعنى القضاء والقدر في حين كان من المستحيل عليها افهام المسيحية أن الرجاءات والصلوات والتعلق بالقديسين وغيرهم لا تؤثر في مجرى الاحوال. وكانت المسيحية ترى كل حادث جديد عبارة عن مفاجأة لا أكثر، بينما تعلم المسلمون مبادئ المسببات والنتائج

ومع ان اعتقاد المسلمين كان في الاصل ان الارض منبسطة -- وهو ما كان يعتقد جميع الناس -- لم يأت عهد المأمون حتى أثبتوا كرويتها وشرعوا في مسح قطرها بالرغم من تكفير تقي الدين للخليفة من أجل ذلك

وكان القرآن في البدء عقبة أمام العلوم والآداب لما كان يدور في خلد القوم من أنه منزل يحوى كلمة الفصل . ولكن ثارت الثورة العملية ضد هذا الرأى في عهد علي وأنتجت في عهد معاوية الذى جعل الحكومة وراثية ثم نقل كرسىها الى دمشق وكان النضال شديداً بين معاقل الثقافة الاسلامية . فان العباسيين فى آسيا والفاطميين فى مصر والامويين فى اسبانيا كانوا يتسابقون لنشر العلم وتشجيعه .

وهنا يجدر بنا أن نلاحظ أن نقل المسلمين للعلم لم يكن عن طريق يوناني أو روماني بل عن الاسكندرية حيث نشأت الافكار المبنية على التجارب والملاحظة لاعلى الرجم بالغيب والفلسفة . وهذا يتوسع المؤلف فى ذكر العلوم التى كان المسلمون سبباً فى تقدمها والمدارس التى أنشئوها وما اكتشفوه فى الفلك والكيمياء بوجه خاص وأما فى الفصل الخامس فبحث المؤلف فى ماهية الروح حسب ما تصوره أهل ذلك العصر وأتى برأى وثني الاغريق والرومان من أنها تشابه الجسد الذى تقطنه وتشكل بشكله وهذا ما سلم بصحته المسيحيون دون جدل كما وانهم أخذوا عن الوثنية فكرة عما تكون عليه الروح بعد مفارقتها للجسد ثم ذكر انه وجد فى الفيدا منذ الازمنة القديمة « يوجد اله واحد هو الروح العليا ومنها نشأت أرواح الناس » وهكذا قالت شريعة مانى أن الروح بلا شكل وأن العالم المنظور على جماله ، ليس الا ظلاً للروح غير المرئية ، وقد نقل أرسطو هذا الرأى عن الشرق لأول مرة وعنه تناقله فلاسفة الازمان السالفة فلما احتك العرب بمدرسة الاسكندرية هضموا هذا الرأى خصوصاً بعد ما اصطبغ بالصبغة اليهودية واليهود هم الذين نقل عنهم العرب طريقة التفكير ونظام الحكم -- وأخذت أوروبا أخيراً هذا الرأى عن ابن رشد الذى اقتحمت أفكاره أوروبا عن طريق أسبانيا وطريق ايطاليا وبنيت على فلسفته « الآراء الهرطقية »

ولم نجد للوقت الحاضر سبباً ثالثاً لوجود العالم يصح اضافته إلى (١) ان خالق العالم كائن مستقل لا يفنى و(٢) أن الذى أوجد العالم ذكاء سيال وروح انبثقت منه جميع الارواح واليه مرجعها . وتسمى الاولى فكرة الخلق والثانية فكرة

النشوء وهى التى قام العرب بنشرها عن طريق أسبانيا ويرجع المؤلف أدراجه فيتكم عن روما بعد أن تركها مؤقتاً فيقول ان طائفة الفرنسيسكان فيها سامت بالفكرة الثانية ولكن طائفة الدومينيكان ناهضتها بحجة أن التسليم بها يعنى الموافقة على اجتماع روجى القديس بطرس ويهودا فى أصل واحد .

ولم يكن باوروبا حتى عهد البابا انوسنت الرابع Innocent عام ١٢٤٣ محاكم غير محاكم البطارقة فلما انتصر الاسبان على العرب والغوا المحاكم بعد أن استبدلوها بمحاكم التفتيش احتج البطارقة على الافتئات الذى وقع على سلطتهم ولكن ساعد الملوك البابا على توطيد النظام الجديد لما رأوه فيه من النفع لتنفيذ أغراضهم .
وهكذا أصبح الرهبان قضاة لا مرد لكلمتهم .

وكان من الطبيعى أن يتقارب العرب واليهود لما أدخله الاخرون فى أذهان الاولين بانهما ارومتان من أصل واحد هو ابراهيم . وفعلاً قد ربح اليهود جاهاً وثروة فى ظل الحكم الاسلامى . فلما تحكمت الرهبنة فى ناصية العدل شتت شمل اليهود مع العرب طمعاً فى أموالهم وحطاً من نفوذهم وأخذوا يثيرون العامة على اليهود بدعوى انهم يضحون أولاد النصرارى فى معابدهم .

وكانت العلوم فى عصر أوروبا المظلم عبارة عن مجموعة من الخرافات . فالارض مسطحة ترتكز عليها السماء ويفرق الماء بينهما وتتحرك الاجرام السماوية من الشرق إلى الغرب حول الارض أكبر الاجرام حجماً ولم تخلق الكائنات إلا من أجل الانسان فالارض محور الوجود والانسان بيت القصيد فعلى هذه التخيلات بنوا نظرياتهم الفلسفية فمثلاً ادعوا أن فوق السماء عالم من الضوء مملوء بالسعادة يتربع فيه الاله وحوله الملائكة الابرار وأما تحت الارض فموقع مملكة الظلام والبؤس حيث مشوى الاشرار ويتسبب الليل من اختفاء الشمس خلف الطود العظيم الواقع فى شمال الارض .

وكانت الوثنية قد اكتشفت فساد بعض هذه الخزعبلات ولكن لم تجد المسيحية لديها وقتاً لمتابعة البحث لانها كانت مهتمة بتتبع ابحاث الطبيعتين . والمشيعتين من جهة كما كانت جمعياتها الدينية تناضل بعضها البعض من أجل السلطة من جهة أخرى . ولذلك كان المسيحيون يصدرن أحكامهم العامة —

ان صح هذا التعبير — على مارأوه بالعين المجردة . فكلما هم شخص باجراء مباحث جدية أحالوه إلى أقوال القديسين وهكذا قضت خمسة عشر قرناً دون أن ينبغ فيها فلكى واحد . فى حين ان المسلمين شجعوا البحث العلمى بعد موت النبى . بست سنين بعد أن أخذوا الاسكندرية ، ونقلوا فى أقل من قرن جميع علوم اليونان وعرفوا أبعاد الارض ورتبوا السيارات ولا يزال أغلبها يحمل أسماء عربية حتى الآن .

وما زالت أوروبا تضرب فى غياهب الجهل إلى أن قام ثلاثة من البحارة كولومبوس ودى غاما وماجلان باكتشافات أثبتت فيما بعد دوران الارض . ولكنهم لم يفعلوا ذلك خدمة للعلم ، بل لاجل البحث عن طرق تجارية . وهناك ما يرجح أن كولومبوس كان واقفاً على بعض كتابات ابن رشد ومن المحقق انه مات وهو يعتقد تماماً انه عثر على طريق ثانية توصل إلى الشرق

وعقب ذلك بضع محاولات للبحث العلمى ولكنها كانت دائماً تصادم بشدة . ولما بسط غاليلو نظريته اتهموه بالزندقة والاحاد والكفر فقال المسكين رغبة منه فى دفع الشر عن نفسه ان الكتب المقدسة لم تنزل لنشر المعارف بل من أجل نشر الاخلاق الفاضلة فكان قوله هذا سبباً فى تقديمه الى ديوان التفتيش بتهمة ادعائه أن الارض تدور من حول الشمس خلافا لما ذكر فى الكتب فرمى فى السجن وعومل معاملة وحشية ولم يطلق سراحه حتى أخذوا عليه الموائيق بان لا ينشر أفكاره

ولكن بعد اثنى عشر سنة لم يستطع صبراً فطبع أراءه عام ١٦٣٢ فكان جزاءه أن أجبرته محكمة التفتيش أن يركع ويلعن نظرية دوران الارض ويده على الكتاب المقدس ففعل ومات بعد أن ذاق أشد أنواع العذاب لمدة عشرة أعوام وحينئذ رفضوا دفنه بين من قضوا من المؤمنين